من صور الحياة فى دمشق

الشيخ عيد السفرجلاني

للاستاذ على الطنطاوى

. . . رفع الشيخ صوته مرة ثانية يأمر تلاميذه بالانصراف ولكنه لم يسمع لهم ركزا ، فنظر فاذا المقاعد كلها خالية ، واذا آخر تلميذ قد بلغ الباب الخارجي ، ثم قفز فرحاً مسروراً ، وغاب فى منعطف الطريق ، وعم المدرسة السكون . . .

تنفس الشيخ الصعداء ، والقى عصاه جانباً ، ثم تمدد على كرسيه المستطيل ، يستريح من العناء الذى حمله فى نهاره ، وكأن هذا السكون العميق ، وهذه الصفرة التى تبعثها فى الغرفة اشعة الشمس المحتضرة قد ملأت نفسه كآبة ورهبة ، فغمض عينيه ، وأسلم نفسه لخيالاتها :

احس كأن هذه السجف التى اسدلها دون الماضى ، ترتفع سجافا سجافا ، وان هذا الماضى البعيد الذى لفه فى ثوب النسيان ، وألقى به فى هوة العدم ، قد استفاق فى نفسه مرة واحدة ، ثم عاد يكر عليه كما يكر « شريط السينما » ، ولكنه سينما حياة طويلة ، مرت عليه كأنما هى يوم واحد او بعض يوم : سبعون عاما مرت به فى لمحة عين ، فلم يأخذ بصره فيها إلا العمل المستمر فى تعليم صبيان دمشق ، سبعون عاما لم يستر ح فى خلالها إلا أيام الجمع ، ثم يعاود عمله منذ صباح السبت ، هادئا راضيا نشيطا . . .

***

عادت به الذكرى الى ذلك اليوم الذى بدأ فيه حياته التعليمية ، وكان غض الشباب ، يقطع مرحلة (العشرين) ، وكان يوما بعيداً طوى فكره الوصول اليه ثلاثة أرباع القرن ، وأدار الفلك راجعا سبعين دورة . . . يالقدرة الفكر البشرى ! كيف يدير الفلك كما تدير الاصبع عقرب الساعة تقديما وتأخيرا ؟

كانت المدرسة التى استأجرها غرفة واحدة ، فى (المناخلية) قبالة الباب الحديدى الذى بقى مع قطعة من السور ، تراثا لدمشق المفتحة الابواب لكل طامع ، مزر دمشق المنيعة المتحصنة بسورها وقلوب ابنائها من كل طامح ، وفى هذا الباب نفحة من نفحات الغساسنة (العرب الخلص) يحسها من يجوزه ، كما يحس من يدخل من الباب الشرقى روح خالد بن الوليد ، بطل عصره ، واينبال العرب ، وكما يحس من يمر من باب الجابية روح ابى عبيدة بن الجراح ، ولم يكن هذا الباب معروفا بباب المناخلية كما يدعى اليوم ، بل كان يدعى بالباب المسدود ، وقد كان قبل ان يسد الباب الرسمى لملوك الغساسنة ، وكان يقابل قصر البريص ، حيث كان الغساسنة الكرام الحسب الشم الانوف :

يغدون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

***

ذكر كيف لبث نهاره كله منفردا لم يجىء اليه تلميذ واحد ، وكيف اسرع المساء بالعودة الى داره . قبل أن يقفل العسس ابواب دمشق ، وبواباتها التى كانت تغلق منذ العشاء ، أيام كان الناس جادين مستقيمين لا يعرفون ملاهى الغرب ورذائله ، ولا يعرفون احياء الليل فى الفاحشة ، وقتل النهار فى الكسل . وكيف كان قوى الامل ، جم النشاط ، لا يخالط اليأس قلبه ، فلم ينثن عن عزمه . وغدا فى اليوم الثانى الى مدرسته التى أنشأها فى البلد الذى لا يعرف القراءة الا اثنان فى الألف من سكانه . . . فجاءه خمسة تلاميذ ، وشرع يعمل

لم يكن الشيخ يحمل شهادة ، ولم يكن فى دمشق كلها من يحمل شهادة البكالوريا أو الكفاءة ، ولكنه قد اتقن العلوم الاسلامية والعربية ، وثابر سنين طويلة على (الطلب) حتى الم بالثقافة العامة المعروفة فى زمانه الماما حسنا . وانصرف للتعليم ابتغاء لمثوبة الله ، واجابة للرغبة القوية الجامحة . فلما جاءه هؤلاء التلاميذ ، رأى فيهم تحقيقا لحلمه فاكب على تعليمهم وتهذيبهم

***

— أحسن الله لأولئك التلاميذ ! لقد كانوا اشرافاً عاملين ، ثيابهم كاملة . وحركاتهم وافعالهم فياضة بالرجولة ، وثيابهم مقصورة على البيت والمدرسة ، لا تعرف الرذيلة الغربية طريقا الى نفوسهم ، ولم يكن الغرب قد غزانا بازيائه وملاهيه وابنائه ، وابنائنا الذين علمهم العلم والعقوق . واعطاهم السلاح ولقنهم كيف يقتلون به (التقاليد) الشرقية الشريفة ، فكانوا نموذجا من هذا كله .

لقد هاجت الشيخ ذكرى أولئك التلاميذ الذين اصبحوا اليوم شيوخا ومات منهم من مات ، وقارن بينهم وبين تلاميذ اليوم المتأنثين المتخنثين الذين يتقنون التجمل ويغوصون فى الملاهى القذرة الى أعناقهم

فاسترجع وهم بالبكاء . وازدحمت في ذاكرته الصور المؤلمة ، فرأى كيف كان يتلقى الفوج من تلاميذه أطفالا ، فيعلمهم ويربيهم ، ويجعل منهم شبانا عاملين ، ثم يودعهم بعد أن يوليهم من نفسه اسمى مايولى والد ولده ، فيغادرون المدرسة ، ليدخلوا الحياة ، ويرتقون من مقاعد النظارة الى خشبة المسرح ، ويحسون أن هذه الشهادة غاية العلم ، وهي فاتحته ، وانهم اذا نشروها ، طويت لهم المراتب الى الصدر وقدم لهم من كل شيء مايشتهون ، لايدرون ان للحياة فنا غير فن الكتب ، وفي العلم آفاقا لاتحيط بها المدرسة . . . وكيف كان يلبث الايام الطويلة يستوحش بالمدرسة والمنزل ، ويحس بالفراغ في قلبه بعد أن اقتطع منه كل فوج قطعة ، ويتألم ويجفوه النوم . فلايعلم الا الله بألمه . ثم يستعين بالله ويستأنف العمل مع تلاميذه الجدد . ويحاول أن يجد فيهم بدلا مما فقد ، حتى اذا نضجت الثمرة خرجت من يده . وكان حظه من هؤلاء حظه ممن سبقهم : ينسونه مذ يتخطون بأقدامهم عتبة الباب ، وينصرفون عنه اذا لمحوه في طريق ، مصغرين خدودهم ، شامخين بأنوفهم — وهم التجار الاغنياء ، أو الموظفون الكبار ، أو الوجهاء الكرام — على هذا الشيخ المسكين (معلم الكتاب) .

— احد عشر الف تلميذ . . . احد عشر الف . . . علمتهم وأفنيت فيهم حياتي ، فضاع تعبي فيهم أدراج الرياح . . . يالله ! وفتح عينيه فوقع بصره على مرآة كانت إلى جانبه فنظر فيها وأطال النظر كأنما قد انتبه الآن الى لحيته البيضاء الناصعة ، والى سنيه التسعين فاسترجع مرة ثانية . . وسأل الله حسن الخاتمة

***

— سقياً لتلك الايام الهنيئة . حين لم يكن في دمشق الا هذه المدرسة . ومدرسة الشيخ الصوفي ، أما الآن فالمدارس تعد بالمئات ، ولكن الناس لايميلون الا الى المدارس الاجنبية ، إنهم يضنون على مدرسة كهذه المدرسة تقدم ابناءهم للفحص الرسمي العام ، وتحفظ لهم دينهم ووطنيتهم بعشرين قرشاً في الشهر ، ثم ينفقون مائتين وثلاثمائة في المدارس الفرنسية او الايطالية او الانجليزية ، ليعود اليهم أبناؤهم فرنسيين او طليانا او انكليز . . . إه ، الحمد لله على كل حال الحمد لله . . . اننا نجد ثمن الخبز .

وانتبه فاذا الباب يقرع قرعاً متواصلا

— ادخل ، تفضل . . بمن هذا الكتاب ؟

— من وزارة المعارف

قرأ الشيخ الكتاب اولا وثانياً ، وقرأه مرة ثالثة ، فغشيت وجهه سحابة اليمة من الغم ، ثم قام الى مكتبته صامتاً ، فأخرج من قراراتها دفتراً كبيراً مسح الغبار عنه ، وأخذ يقلبه يفتش عن هذا الاسم ، بين أحد عشر الف اسم حواها هذا السفر ، فلما وجده تناثرت الدموع من عينه . وارتمى على كرسيه محطما .

— أهذه خاتمة المطاف ؟ . إه . . الحمد لله على كل حال . . الحمد لك يارب . . انه تلميذي علمته ومنحته قسطاً من قلبي ، وعلمت أباه من قبله ، وعلمت ابنه من بعده ، ولكن لابأس ، إن أمور المعارف بيده . ومن حقه أن يفعل ماشاء ، وعاد فقرأ الخطاب للمرة الرابعة : « . . . ولانكم لا تحملون شهادة تخولكم حق ادارة مدرسة ابتدائية لانرى بدأ من ان . . . »

***

كنت منذ عامين محرراً في الجريدة الوطنية الكبرى (الايام) فجاءني يوما (١) ناع ، فنعى الى الشيخ عبد السفر جلاني . واخبرني ان هذا منصرفه من دفنه ، فبلغ بي الألم مبلغه ، وجعلت مقالي في ذلك اليوم عن الشيخ . ولما قدمته لرئيس التحرير . قال لي احد الرجال الكبار في دمشق ، وكان في غرفة الرئيس مانصه بالحرف :

بلا مسخرة ، شيخ كتاب مات !

قلت : ولكنك ياسيدي تلميذه

— واذا كنت تلميذه ؟ . شيخ كتاب !

***

وبعد يامولاي الشيخ :

لاتأس على أن ذهبت في غير ماضجة ولا صخب ، وأنت قد سكنت قبراً في (الدحداح) لايمتاز من مئات القبور التي حوله ولا تحيط به النصب والنقوش ، وان الناس لم يأبهوا لك كثيراً ، ولم يقيموا لك الحفلات ، ويلقوا على قبرك الخطب . . . فانت أشرف وأجل من كل هؤلاء الصاخبين الضاجين ، ومجدك الصامت الذي بنيته في سبعين سنة لبثت فيها مناراً للعلم — وهاديا ومرشداً . أسمى من مجد هؤلاء الذي يبنى على خطبة جوفاء ، أو ليلة في السجن ظلما ، أو مقالة في صحيفة رعناء .

وان كنت شيخ كتاب ، فذلك فخر لك ، وحسبك فخراً ان الذين سرقوا مجدك ومجد أمثالك — هم — كما هي سنة الحياة — أشد

(١) توفي شيخ الشام الشيخ عبد السفر جلاني في ديسمبر سنة ١٩٣١